



وفي نهاية السنة الرابعة، أبدى العالم مؤشرات العجز عن إغاثة اللاجئين السوريين، وواصل نظام دمشق إظهار لا مبالاته الكاملة. أبدى المانحون ساماً من حروب غزة واستعجلوا ضوءاً في آخر النفق، فيما يتحدى الإسرائييليون عن احتمال حرب قريبة. وأي حرب تطول يصبح التمويل المخصص للإيواء والإطعام والتدفئة أشبه بتمويل للحرب نفسها.

في الشهر الأخير، بز خطر العجز الإغاثي في لبنان خصوصاً، شعرت المنظمات بجزع بالغ سمعت أصداؤه في نداءات استغاثة أطلقتها. وفي المؤتمر الأخير في برلين، اتضحت أن الحاجة إلى المال باتت أكبر بكثير من عروض التبرعات لمنطقة لا تنتهي صراعاتها. فخريطة الإغاثات المطلوبة تشمل أيضاً بلداً نفطياً مثل العراق، وهي ماضية في الاتساع: سوريا، غزة، إقليم كردستان العراق، لبنان، الأردن، تركيا... بشرٌ كثُر دمرت بيوتهم وأرزاقهم وسوَّيت أحياوْهُم وحاراتهم بالحبيض، أو اقتلعوا من مناطقهم وأرضهم وأجبروا على التشرد من قلب غزة لأنهم يزعجون قوة الاحتلال، من الموصل والأنبار لأنهم مسيحيون أو أيزيديون أو سنة، ومن معظم مدن سوريا وبلداتها لأن نظامهم يعتبرهم مواطنين زائدين، ووجبت مساعدتهم على البقاء. بل إن منظمات الإغاثة تواجه الآن واقعاً جديداً، فعليها أن تساعد أيضاً لبنانيين وأردنيين وأكراداً تأثرت أوضاعهم بوجود اللاجئين على أرضهم.

«نفدينا الكلام»، قالت فاليري آموس منسقة الإغاثة في الأمم المتحدة، «لنصف كامل الوحشية والعنف والاستهانة بحياة البشر» في سوريا التي أصبحت من «أكثر الأماكن خطورة على الأطفال في العالم»، فأكثر من خمسة ملايين طفل فيها يحتاجون إلى مساعدة فورية لأنهم «يتعرضون للقتل والتعذيب وللعنف الجنسي من جميع أطراف الصراع، وفي الشهر الأخيرة زادت التقارير عن قتل الأطفال وإعدامهم على وصلبهم وقطع رؤوسهم ورجمهم حتى الموت، وأصيب ملايين منهم بصدمات عنيفة من حول ما اضطروا لأن يروه». وهذه خلاصتها قبل أن تغادر مهمتها: «أصبح المجتمع الدولي متلداً إزاء الأرقام الجامدة والمأزق السياسي»... لم تعد قادرة على التمييز بين النظام السوري و«داعش» ووسائل أخرى، وإذا تقارب الاحوال زالت الفوارق أيضاً بين «الدواعش» والإسرائييليين، وبينهم وبين «نظام المالكي» وميليشيات إيران. منطقة موبوءة بإجرام أشد فتكاً من «الإيدز» و«إيبولا».

بالفعل لم يعد أحد يحصي الضحايا. تجمّد الرقم المتداول عند حدّ المئتي ألف إنسان قتيل في سوريا، كما لو أنه أقصى ما يتقبله الضمير في مقتلة تدور أمام الأنظار، كما لو أن العالم يعتبره «معقولاً»، «مقبولاً»، شرط أن يتوقف، لكنه لا يتوقف، بل

إنه فاق المئتي ألف قبل زمن طويل من اعتماد هذا الرقم المرموق معياراً للفضاعة التي قتلت أي إرادة دولية لمواجهتها. الفضاعة نفسها سبق أن ابتلعت مراراً في غزة، وفي العراق، من دون أن تحرّك المجتمع الدولي. ماذا عن مئات الآلاف المفقودين وما هو مصيرهم؟ وماذا عن اللاجئين في المخيمات، هل يعتقد أحد أنهم يعيشون أم يموتون بشكل آخر؟

كالعادة أفلتت إسرائيل العنان لغرازها هذه السنة فشنت حربها الثالثة (خلال ستة أعوام) على غزة، وكرر العالم تركه مجرمي الحرب يفلتون من العقاب، حتى إن هؤلاء لا يتترددون في التنبيه إلى الأخلاقيات: بنيامين نتانياهو يقول إن أوروبا إذ تعترف بالدولة الفلسطينية لم تتعلم من دروس «الهولوكوست»، لكن هل تعلم هو شيئاً؟.. هذا «النموذج» الإسرائيلي فعل فعله طوال العقود الستة الماضية في شيطنة الأنظمة العربية، فغدت سلطات الاحتلال لبلدانها وشعوبها وصار حكامها، تحديداً في سوريا والعراق، نسخاً مقلدة من شارون ونتانياهو. يعيّب الإسرائيليون على الآخرين نسيان «المحرق» فيما هم يعيّدون إنتاجها، وعاب بشار الأسد ونوري المالكي وسيدهما الإيراني على عرب وغير عرب دعمهم له «الإرهاب» فيما كانت الأنظمة الثلاثة تتفنن في تصنيع الوحش «الداعشي» حتى صار لفترة حليفها الرابع في تقتيل السوريين وال العراقيين (من كل المذاهب)، ثم راحت تنسب نشأته وصعوذه إلى مصادر شتى، تارة إلى تركيا وطوراً إلى أميركا وإسرائيل، ما يؤكّد المؤكّد وهو أن الجميع شركاء في ذلك التقتيل، وأن «داعش» صنيعهم مثلما هو الآن عدوهم الأول.

الأخطر أن الجميع يبحثون حالياً عن أفضل السبيل لاستثمار وحشية «داعش» في خدمة مصالحهم، وعلى رغم أن صناعة السلاح تعيش أكثر مراحلها ازدهاراً بعد سبعة أعوام من التراجع (أرقام السنة تقترب من 90 بليون دولار)، إلا أنهم يتلاؤن في تقديم الطعام والرعاية الصحية إلى اللاجئين (8 ملايين نازح سوري و12 مليوناً في الخارج يحتاجون إلى المساعدة، وكذلك نحو مليوني عراقي، عدا أكثر من مئتي ألف غزي بلا مأوى، وفقاً لآخر تقديرات للأمم المتحدة). وفي غمرة المواجهة مع «داعش»، ينسى الجميع الظروف التي ساهمت في ظهوره، والأسباب التي يقولون إنهم يريدون تبديدها. لكن مجريات الحرب تبدو، على العكس، حافزاً لاستيلاد جيل آخر من الإرهاب: «التحالف» ونظام الأسد يضرّيان معاً في الرقة، الأول يستهدف «داعش» والآخر معارضيه من المدنيين. وبغير «التحالف» الذي تقوده أميركا على موقع في العراق ثم يتقدّم الإيرانيون وميليشياتهم لغزوها واحتلالها. خلال ذلك، وفي السياق نفسه، كانت حرب إسرائيل (بتأييد أميركي) على غزة، ثم «الفيلتو» الأميركي على أي مشروع فلسطيني في مجلس الأمن» وكان واشنطن تقول للفلسطينيين إن قبول الاحتلال الإسرائيلي هو أفضل الخيارات المتاحة لهم طالما أن أي مقاومة حتى السلمية مرفوضة وأن المفاوضات أضحت حلقة مفرغة.

مع دخول «داعش» المعادلة، صارت الأولوية لقتيل أكبر عدد من قادته ومقاتليه، فلا خيار معه سوى إلغائه دوراً وجوداً، فهو لا يعرض التفاوض ولا أحد يرغب في التفاوض معه. ولعل المواجهة أظهرت «فائدة» وحيدة لهذا التنظيم، إذ إنه وسيلة الكثير من الأطراف لتحقيق مكاسب، فظهوره أتاح للأميركيين عودة غير مستحقة كـ«منذين»، وسُوغ لإيرانيين تدخلاً أكثر سفوراً وجوراً كـ«محاربين ضد الإرهاب»، وفتح للأتراك بازاراً يساومون فيه على مكانتهم ودورهم كـ«قادة الإسلاميين» في الإقليم، فيما كرس غياب العرب أكثر فأكثر، حتى إن «الحرب على داعش» باتت مدخلاً لتحديد مستقبل سوريا كبلد موحد أو مفكك، وكذلك مستقبل العراق. كما لو أن كل كلمة في اسم هذا التنظيم تلغي ما قبل وما بعد، فلا هو «دولة» ولا هو «إسلامي» ولا هو «العراق» أو «الشام». أما إضعافه والقضاء عليه فقد يكونان إرهاصاً لإنشاء كيانات عدة بمثابة «مكافآت» للدول النافذة في الإقليم، طالما أن دستور عراق ما بعد الاحتلال الأميركي يمنح الحق في «الفدرلة» كترجمة عربية خاطئة لـ«الانفصال»، وطالما أن خطة ستيفان دي ميستورا تلحظ إمكان إنشاء كيانات لا مركزية غير مرتبطة بأي مركز. أما إسرائيل فقد تكون مكافآتها بالمساعدة في تصفية قضية شعب فلسطين وأرضها.

ما الهدف من الحرب الراهنة، أهو القضاء على «داعش»، ثم ماذا بعد؟ لا شك في أن عدم الوضوح بالنسبة إلى «ما بعد» يلقي بظلال قاتمة على «وحدة» الهدف. فما نعتقد أن أميركا وإيران تحاربان من أجله قد لا يكون واقعياً، فكلاهما تحارب خارج أرضها، وفي اتفاقيهما أو اختلافهما إشكالات تتعلق بالشعب والأرض اللذين تريدان طرد «داعش» منهما. وبالنظر إلى ما هو جاري فإن الحرب، من رؤية سياسية للعراق وسوريا وكذلك لفلسطين، تبدو منذ الآن وصفة لخطرين مستقبليين: أولهما أن المعاناة الإنسانية للاجئين والمهجرين لن تنتهي قريباً، بل ستتفاقم وتؤدي إلى مأسٍ أكبر، والآخر أن هذه المأسى معطوفة على «انتصار» تسجّله إيران ستعني ترسيحاً وتجديداً للإرهاب أياًً تكن تسمياته...

الحياة

المصادر: